المطلب الثامن عشر

صفة الكلام وبدعة القول بخلق القرآن

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تناولنا في المطلب السابق الحديث عن بعض التطبيقات المنهجية لفهم طريقة السلف في إثبات توحيد الصفات، وعلمنا أن أولية الله ﷻ أولية ذاتية، وأولية وصفية، وأولية فعلية، وأن الله ﷻ موصوف بدوام الخالقية والقدرة والفاعلية، وأنه سبحانه وتعالى علق تحقيق المراد لأهل الجنة بمشيئتهم إكراما لهم، وعلق تحقيق مراد العباد في الدنيا على مشيئته ابتلاء لهم.

وفرقنا بين ما يبقى ببقاء الله ﷻ وما يبقي بإبقائه، ثم تناولنا بيان الأدلة النقلية على إثبات العقيدة السلفية في رؤية الله ﷻ في الآخرة، وبينا مذاهب الناس في رؤية العبد لربه، ووجه الرد على المعتزلة في استدلالهم على نفي الرؤية بمنع موسى عليه السلام منها، وأن الله ﷻ لا تدركه الأبصار.

كما تناولنا النصوص النقلية تدل على أن النبي ﷺ لم ير ربه في الدنيا بعينيه، وأن الخلاف إنما هو في الرؤية المنامية لله ﷻ دون الرؤية

العينية، ثم دار الحديث عن إثبات توحيد الله ﷻ في صفة اليدين والأصابع والعينين، ووجه الرد على الأشعرية في تأويلهم لليدين بالنعمة أو القدرة وتأويلهم للعينين بالرعاية.

وفي هذا المطلب نتناول بإذن الله الحديث عن صفة الكلام وإثباتها لله ﷻ، وما حدث للأمة الإسلامية بسبب المعتزلة لما هيمنوا على الخلافة الإسلامية أيام الخليفة المأمون بن هارون الرشيد وألزموا الناس بخلق القرآن أو حملهم على السيف، وذلك من خلال المحاور التالية:

- **عقيدة السلف في صفة الكلام وتوحيد الله فيها.**

مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم هو ما دل عليه الكتاب والسنة، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة، أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه، ليس مخلوقاً منفصلاً عنه، بل هو صفة قائمة بذاته، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته، فلم يزل الله ﷻ متكلما إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، ويمكن بيان اعتقاد السلف الصالح في صفة الكلام من خلال النقاط التالية:

أولا: أن الله ﷻ يتكلم بالكيفية التي تليق بجلاله. كما قال الله تعالى في سائر أسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ الشورى:١١. ولا يلزم من إثبات صفة الكلام

التشبيه والتجسيم كما هو اعتقاد المعتزلة والمتكلمين، بل أخبرنا الله تبارك وتعالى أن بعض المخلوقات تتكلم بدون جارحة لإخراج الحروف، فقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ يس:٦٥، فنحن نؤمن أنها تتكلم كما أخبر الله ﷻ في كتابه، ولا نعلم كيف تتكلم.

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ فصلت:٢١.

وعند البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ) (١).

والنصوص واضحة في كون الأيدي والأرجل والجلود والطعام، كل ذلك يتكلم بلا فم يخرج منه الصوت المعتمد على مقاطع الحروف، فأصل قياس الخالق على المخلوق قياس فاسد لا يجوز.

ثانيا: أن صفة الكلام صفة ذات، والتكليم صفة فعل. وكونه من صفات الذات لأنه من لوازم الكمال، وضده من أوصاف النقص، والله سبحانه له الكمال المطلق، ولهذا ذم بني إسرائيل لاتخاذهم عجلا لا يتكلم إلها من دون الله ﷻ. قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ

---

(١) رواه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة ٣/١٣١٢ (٣٣٨٦).

حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ الأعراف:١٤٨.

وقال أيضا عن العجل: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ طه:٨٩. فعجْز العجل عن مخاطبتهم ونفْي الكلام عنه من صفات النقص التي يستدل بها على عدم ألوهيته.

وأما كون التكليم من صفات الأفعال فلأن الله ﷻ أخبرنا أنه يتكلم بمشيئته، فإن شاء كلم من شاء من خلقه، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ النحل:٤٠. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ يس:٨٢.

ومعلوم أن الشيء واقع بقوله تعالى له كن بعد أن لم يكن، وليس الشيء نفسه وهو كلامه وقوله كن.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ الأعراف:١٤٣.

والآيات والأحاديث التي لا حصر لها تدل على أن الله يتكلم متى شاء، وإذا شاء ،وكيف شاء.

قال ابن القيم بعد أن أورد الأدلة على صفة الكلام: (وهناك

أضعاف أضعاف ذلك من نصوص الكتاب والسنة التي إن دفعت دفعت الرسالة بأجمعها، وإن كانت مجازا كان الوحي كله مجازا، وإن كانت من المتشابه كان الوحي كله من المتشابه، وإن وجب أو ساغ تأويلها على خلاف ظاهرها، ساغ تأويل جميع القرآن والسنة على خلاف ظاهره؛ فإن مجيء هذه النصوص في الكتاب، وظهور معانيها، وتعدد أنواعها، واختلاف مراتبها، أظهر من كل ظاهر، وأوضح من كل واضح) [(١)].

ثالثا: أنه سبحانه يتكلم بحرف وصوت يسمع، سمعه جبريل عليه السلام من الله، وسمعه موسى عليه السلام، وسمعه محمد ﷺ، وأدلة الكتاب والسنة على ذلك كثيرة منها:

١- قوله تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ البقرة:٢٥٣.

٢- وقال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ النازعات:١٥/١٧.

٣- وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ سبأ: ٢٣.

٤- وروى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة لابن القيم ص ٥١٨.

النبي ﷺ قال: (إنَّ اللّٰهَ تبارك وتعالى إذا أحَبّ عَبْدا نادَى جبْريل: إنَّ اللّٰهَ قَدْ أحَبّ فُلانا فأحِبَّه، فيُحِبه جبْريل، ثمَّ يُنادي جبْريلُ في السَّماء: إنَّ اللّٰهَ قَدْ أحَبّ فُلانا فأحِبَّوه، فيُحِبه أهْل السَّماء، ويُوضعُ له القَبُول في الأرْضِ) [(١)].

٥- وقد بوب الإمام البخاري أبوابا كثيرة في إثبات كلام الربِّ ﷻ يوم القيامةِ مع الأنبياء وأهل الجنة وغيرهم. وروى من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (إن آخِرَ أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخِرَ أهل النار خروجاً من النارِ رجل يخرجُ حَبْواً، فيقول له ربُّه: ادخل الجنةَ، فيقول: رب، الجنةُ ملأى، فيقول له ذلكَ ثلاثَ مَرَّات، فكل ذلك يعيد عليه، الجنة ملأى، فيقول: إنَّ لكَ مثل الدنيا عشرَ مرار) [(٢)].

٦- وروى البخاري من حديث عدي بن حاتم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ما منكم من أحدٍ إلا سيُكلمهُ ربهُ، ليس بينَهُ وبينَهُ ترجمان، فينظرُ أيمنَ منهُ فلا يرى إلاّ ما قدَّمَ من عمله، وينظرُ أَشْأَمَ منه فلا

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الملائكة ٦/٢٧٢١ (٧٠٤٧)، ومسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده ٤/٢٠٣٠ (٢٦٣٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء ٦/٢٧٢٨ (٧٠٧٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجا ١/١٧٣ (١٨٦).

يَرَى إلا ما قدَّمَ، وينظرُ بين يديه فلا يرى إلاَّ النارَ تِلقاء وجهه، فاتَّقوا النار ولو بِشقٍّ تمرة) (١).

٧- وعند البخاري من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (يحشُرُ اللهُ العبادَ، فيُنادِيهم بصَوتٍ يَسْمعُه مَن بَعُد كَما يَسْمعُه مَن قَرُبَ: أنا المَلِكُ أنا الدَّيانُ) (٢).

٨- وروى البخاري من حديث صفوان بنِ مُحْرِز أنَّ رجلاً سأل ابن عُمر ﷺ: كيف سمعتَ رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: (يدنو أحدُكم من ربِّه حتى يضع كنفه عليه، فيقول: أعملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم، ويقول: عملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقررهُ ثم يقول: إني سَترتُ عليك في الدنيا، وأنا أغفِرها لك اليوم) (٣).

٩- وفي كلام الله ﷻ مع أهل الجنة، روى البخاري من حديث

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ٦/٢٧٢٩ (٧٠٧٤)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة ٢/٧٠٣ (١٠١٦).

(٢) رواه البخاري معلقا في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ٦/٢٧١٩، وقد وصله ابن حجر في تغليق التعليق ٥/٣٥٥، وصححه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة ١/٢٢٥.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ٦/٢٧٢٩ (٧٠٧٦)، ومسلم في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ٤/٢١٢٠ (٢٧٦٨).

أبي سعيدٍ الخُدريِّ ﷺ أن النبيُّ ﷺ قال: (إن اللهَ يقول لأهل الجنةِ: يا أهل الجنةِ، فيقولون: لبيْك ربنا وسعدَيك، والخير في يَدَيْك، فيقول: هل رضيتُم؟ فيقولون: وما لنا لا نَرضى يا رب وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقِك، فيقول: ألا أُعطيكُم أفضَل من ذلك؟ فيقولون: يا ربّ، وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِل عليكم رِضواني فلا أسخَطُ عليكم بعدَهُ أبدا) (١).

١٠- ومن حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ كان يوماً يُحدثُ وعندَه رجل من أهل الباديةِ: أنَّ رجلاً من أهل الجنة استأذنَ ربَّهُ في الزَّرع، فقال: أو لستَ فيما شئت؟ قال: بلى، ولكني أحبُّ أن أزرعَ، فأسرعَ وبذر، فتبادَرَ الطَّرْفَ نباته واستواؤه واستحصاؤه وتكويرهُ أمثال الجبال، فيقول اللهُ تعالى: دونَك يا ابن آدم؛ فإنه لا يُشبعُك شيءٌ، فقال الأعرابيُّ: يا رسول الله، لا تَجِد هذا إلاَّ قُرشياً أو أنصارِيّاً، فإنَّهم أصحابُ زَرْعٍ، فأمَّا نحن فَلسنا بأصحابِ زَرْعٍ، فضحِك رسول الله) (٢).

وقد تواترت الأدلة بما لا يدع مجالا للشك على ثبوت صفة الكلام لربنا ﷻ، وأنه يتكلم إذا شاء بما يشاء وكيف يشاء، وأنه

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار ٥/٢٣٩٨ (٦١٨٣)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا ٤/٢١٧٦ (٢٨٢٩).

(٢) البخارى في التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة ٦/٢٧٣٣ (٧٠٨١).

يتكلم بكلام يُسْمعه من يشاء، وأن القرآن الكريم الذي هو سور وآيات، وحروف وكلمات هو عين كلامه حقا، لا هو من تأليف ملك، ولا هو من تأليف بشر، وأن القرآن بجميع حروفه ومعانيه نفس كلامه الذي تكلم به، وليس ألفاظ القرآن وحروفه ترجمة ترجم بها جبريل عليه السلام أو محمد ﷺ عما قام بالرب من المعني من غير أن يتكلم الله بها [1].

- **أقوال الناس في صفة الكلام بين النفي والإثبات.**

افترق الناس في مسألة الكلام بين الإثبات والنفي على عدة أقوال متباينة كان أبرزها:

١- قول الفلاسفة: أن كلام الله عز وجل هو ما يفيض على النفوس من معاني، إما من العقل الفعال عند بعضهم، أو من غيره، وهؤلاء يقولون: إنما كلم الله عز وجل موسى عليه السلام من سماء عقله، أي بكلام حدث في نفسه لم يسمعه من خارج.

٢- قول المعتزلة: أنه مخلوق خلقه الله عز وجل منفصلا عنه، وقولهم مبني على مذهبهم أو أصلهم الأول، حيث ينفون أوصاف الله عز وجل تحت مسمى التوحيد ونفي التشبيه، فزعموا أن إثبات الكلام بصوت يُسْمَع تجسيم وتشبيه، فعطلوا وصف الكلام عن الله عز وجل، وزعموا أن

(١) انظر معارج القبول بشرح سلم الوصول لحافظ بن أحمد حكمي ٢٤٧/١ وما بعدها بتصرف، والفتاوى الكبرى لابن تيمية ٥٢٢/٦.

الذي تكلم به محمد ﷺ، ولما كان محمد ﷺ مخلوقا فكلامه مخلوق أيضا، والقرآن مخلوق خلقه الله ﷻ كما خلق سائر الأشياء.

٣- قول الكلابية والأشعرية: أنه معنى واحد قائم بذات الله ﷻ هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عُبر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عُبر عنه بالعبرانية كان توراة، وهذا قول الكلابية والأشعرية.

٤- قول أئمة الحديث والسنة: أنه تعالى لم يزل متكلما، إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديما، وأن القرآن كلام الله ﷻ منزل غير مخلوق، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه، ليس مخلوقا منفصلا عنه، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته.

- **مناقشة الأشعرية في صفة الكلام والرد عليهم.**

زعم الأشعرية أنهم أهل السنة والجماعة، وأن مذهبهم في تأويل الصفات وتعطيلها، هو الحق المبين، والمذهب الوسط بين المعتزلة والحشوية، وهم يطلقون على علماء السلف الصالح الذين أثبتوا الصفات على مراد الله ورسوله ﷺ حشوية.

قال ابن حيدرة: (ومذهبنا هو الحق المبين، وهو مذهب بين طريقي الإفراط من المعتزلة والتفريط من الحشوية، وهو أن الله تعالى متكلم بكلام أزلي قديم كسائر صفاته، وأن حقيقة الكلام أنه معنى قائم

بالنفس، وليس بحرف ولا صوت، وإنما يستدل عليه بالحروف والأصوات) [(١)].

وقال بعض الأشعرية المعاصرين في بيان اعتقادهم: (ليس كلامه تعالى بحرف ولا صوت، ولا يوصف بجهر ولا سر، ولا تقديم ولا تأخير، ولا وقف ولا سكون، ولا وصل ولا فصل؛ لأن هذا كله من صفات الحوادث) [(٢)].

ولازم قولهم أن الله ﷻ لا يتكلم بصوت يسمع، وإنما كلامه معنى واحد، وإشارات مجملة يفهمها جبريل عليه السلام ثم يعبر عن ذلك بلغة الرسل. فإذا عبر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا، فكلام الله سبحانه عندهم ليس فيه أمر ولا نهي، ولا خبر ولا استخبار، بل هو معنى واحد استوعبه جبريل عليه السلام ولم يسمعه، ثم فصله بطريقته الخاصة إلى الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وعبر عن ذلك باللغات المناسبة.

والذي دفعهم إلى ذلك كما سبق هو قياس كلام الخالق وصفاته على كلام المخلوق وصفاته بقياس تمثيلي أو قياس شمولي، فهم يرون أن المخلوق إذا تكلم فكلامه مكون من حروف وأصوات

---

(١) حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر لأبي الحسن بن حيدرة القفطي ص٩١ نشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

(٢) كتاب حق الله على العباد ص٩٢.

وموصوف بالجهر والسر، والتقديم والتأخير، والوقف والسكوت، والوصل والفصل وغير ذلك، وكل ذلك لا يكون عندهم إلا بجارحه بها محل مخارج الحروف التي يصدر منها الكلام، والخالق إذا تكلم بكلام مسموع يفهمه البشر، فإن كلامه سيكون حتما بلسان وفم قياسا على المخلوق.

من أجل ذلك عددوا القيود والشروط السلبية حتى يثبتوا لله ﷻ صفة الكلام وهم كارهون. وأبرز دليل عند الأشعرية يستدلون به على أن كلام الله ﷻ هو الكلام النفسي هو قول الأخطل النصراني:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما : جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وهذا استدلال فاسد، ولو استدل مستدل بحديث في الصحيحين مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به لقالوا هذا من أخبار الآحاد التي لا تفيد اليقين في أمور الاعتقاد! فكيف وهذا البيت قد قيل إنه موضوع منسوب إلى الأخطل، وليس هو في ديوانه؟! وقيل إنما قال: إن البيان لفي الفؤاد، وهذا أقرب إلى الصحة.

وعلى تقدير صحته عنه فلا يجوز الاستدلال به لكونه بعد عصر الاحتجاج على لغة العرب، كما أن النصارى قد ضلوا في معنى الكلام وزعموا أن عيسى عليه السلام نفس كلمة الله، واتحد اللاهوت بالناسوت! فاختلط شيء من الإله بشيء من الناس! وزعموا أن كلام الله ﷻ هو المعنى القائم بالذات الذي لا يمكن سماعه، وأما النظم

المسموع فمخلوق لإفهام المعنى القديم.

وهل يستدل بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام على حقيقة كلام الله ﷻ، أو على تفسير الاستواء بالاستيلاء والقهر، ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب؟!

وعلى فرض جواز استدلالهم بكلام هذا النصراني فمعناه غير صحيح، إذ لازمه أن الأخرس يسمى متكلما لقيام الكلام بقلبه، وإن لم ينطق به، ولم يسمع منه، ولزم أن لا يكون الذي في المصحف عند الإطلاق هو القرآن، ولا كلام الله ﷻ، ولكن عبارة عنه ليست هي كلام الله ﷻ، كما لو أشار أخرس إلى شخص بإشارة فهم بها مقصوده، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذي أوحاه إليه ذلك الأخرس، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى.

وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه، تعالى الله ﷻ عن لازم قولهم، حيث فروا من تشبيه الله ﷻ بالإنسان السوي كلازم لنفي الكلام عند المعتزلة إلى تشبيه الله ﷻ بالإنسان الأخرس كلازم لإثبات الكلام عند الأشعرية، فعندهم أن جبريل عليه السلام فهم منه إيحاءا ومعنى قائما بنفسه، ولم يسمع منه حرفا ولا صوتا، بل فهم معنى كليا مجردا ثم عبر عنه بلغة العرب التي سمعها منه محمد ﷺ، فهو الذي أحدث نظم القرآن وتأليفه العربي.

ويقال لمن قال إنه معنى واحد: هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى

أو بعضه؟ فإن قال: سمعه كله، فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله ﷻ، وفساد هذا ظاهر، لأن كلمات الله لا تنفد، وإن قال: بعضه فقد قال يتبعض، وخالف قوله بأنه معنى واحد.

ولما قال تعالى للملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. ولما قال لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ البقرة:٣٤. وأمثال ذلك: هل هذا جميع كلامه أو بعضه؟ فإن قال: إنه جميعه فهذا مكابرة، وإن قال: بعضه فقد اعترف بأن كلام الله ﷻ ليس معنى واحدا كما زعم.

ويرد قول من قال بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، ما ورد عند مسلم من حديث معاوية بن الحكم ﷺ أن رسول الله ﷺ: (إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ) (١).

وعند البخاري من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن النَّبِي ﷺ قال: (إِنَّ اللهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلاةِ) (٢).

واتفق العلماء على أن المصلي إذا تكلم في الصلاة عامدا لغير مصلحتها بطلت صلاته، واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة، وإنما يبطلها التكلم

---

(١) رواه مسلم في المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة ١/٣٨١ (٥٣٧).

(٢) البخاري معلقا في كتاب التوحيد، باب كل يوم هو في شأن ٦/٢٧٣٥.

بذلك، فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام.

وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيُّ ﷺ قال: (إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلوا بِهِ) (١).

أخبر النبي ﷺ أن الله ﷻ عفا عن حديث النفس إلا أن تتكلم، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء، فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة؛ لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب.

وأيضا ففي السنن أن معاذ بن جبل ﷺ قال: (فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذ، وَهَل يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلى مَنَاخِرِهِمْ إِلا حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِم؟) (٢). فبين أن الكلام إنما هو باللسان، فلفظ القول والكلام وما تصرف منهما من فعل ماض، ومضارع، وأمر، واسم فاعل وغيره، إنما يعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظا

---

(١) رواه البخاري في كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون ٥/٢٠٢٠ (٤٩٦٨)، ومسلم واللفظ له في كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب ١/١١٦ (١٢٧).

(٢) رواه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة ٥/١١ (٢٦١٦) وقال: حسن صحيح، والنسائي في التفسير، تفسير سورة السجدة، باب قوله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع ٦/٤٢٨ (١١٣٩٤). وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي (٢٦١٦). وانظر صحيح الجامع (٥١٣٦).

ومعنى، ولم يكن في مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وإنما حصل النزاع بين المتأخرين من علماء البدعة [١].

- **مذهب الأشعرية لا يمكن وصفه بالوسطية.**

ولا شك أن من قال إن كلام الله ﷻ معنى واحد قائم بنفسه تعالى، وأن المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارئ حكاية كلام الله ﷻ وهو مخلوق، فقد قال بخلق القرآن وهو لا يشعر، فأي وسطية واعتدال في القول بخلق القرآن، فإن الله ﷻ يقول: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ الإسراء:٨٨. أفتراه سبحانه وتعالى يشير إلى ما في نفسه؟ أو إلى المتلو المسموع؟ لا شك أن الإشارة إنما هي إلى هذا المتلو المسموع، إذ ما في ذات الله ﷻ غير مشار إليه، ولا منزل، ولا متلو، ولا مسموع. وليس القرآن الكريم إلا سورا مسورة، وآيات مسطرة، في صحف مطهرة، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ هود:١٣.

وقد ثبت الدليل على أنه يكتب لمن قرأ بكل حرف عشر حسنات، فعند الترمذي وصححه الألباني من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ، فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لا أَقُول الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٨وما بعدها بتصرف.

حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ)[١].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ الإسراء:٨٨. أفتراه سبحانه يقول: لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعوه ولم يعرفوه؟ ومعلوم أن ما في نفس الله ﷻ لا حيلة إلى الوصول إليه، ولا إلى الوقوف عليه.

كما أن الله ﷻ توعد بسقر من سمع القرآن وقال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ المدثر:٢٥ فمن أنكر أن القرآن كلام الله ﷻ، وقال إنه كلام محمد ﷺ أو غيره من الخلق ملكا كان أو بشرا، فقد كفر. ولذلك قال الطحاوي: (ولا يشبه قول البشر)[٢].

يعني أنه أشرف وأفصح وأصدق حديث. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ النساء:٨٧. وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ يونس:٣٨. فلما عجزوا عن

---

(١) رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر ٥/١٧٥ (٢٩١٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٩١٠)، وانظر صحيح الترغيب والترهيب، كتاب قراءة القرآن، باب الترغيب في قراءة القرآن في الصلاة وغيرها ٢/٧٧ (١٤١٦).

(٢) متن العقيدة الطحاوية ص ٢٤ نشر المكتب الإسلامي.

الإتيان بسورة مثله، وهم فصحاء العرب مع شدة العداوة، تبين صدق الرسول ﷺ أنه من عند الله ﷻ، وإعجازه من جهة نظمه ومعناه، لا من جهة أحدهما فقط.

هذا مع أنه قرآن عربي غير ذي عوج بلسان عربي مبين، أي بلغة العربية، فنفي المشابهة من حيث التكلم، ومن حيث التكلم به، ومن حيث النظم والمعنى، لا من حيث الكلمات والحروف. وإلى هذا وقعت الإشارة بالحروف المقطعة في أوائل السور، أي أنه في أسلوب كلامهم وبلغتهم التي يخاطبون بها، ألا ترى أنه يأتي بعد الحروف المقطعة بذكر القرآن؟ كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۞﴾ البقرة: ١/٢. وقوله: ﴿الٓمٓصٓ ۞ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۞﴾ الأعراف: ١/٢. وقوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۞﴾ يونس: ١. وكذلك الباقي ينبههم فيه أن هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفونه، بل خاطبكم بلسانكم.

ومن ثم فإن حقيقة مذهب الأشعرية في صفة الكلام، والذي تأباه الفطرة ويقبحه العقل، أنهم شبهوا الله ﷻ بالأخرس الأبكم الذي يعبر عن مراده الداخلي بإشارات يُفهم منها المعنى المقصود لعدم قدرته على الكلام، سبحانه وتعالى عن وصفهم. فهم فروا من التشبيه حسب زعمهم بتعطيل ما يجب إثباته لله تعالى إلى أشد أنواع التشبيه

قبحا ونقصا حيث شبهوا الله ﷻ بالأبكم، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، فأي اعتدال ووسطية في مذهب الأشعرية.

• كيف ظهرت بدعة القول بخلق القرآن؟

لما تأصلت فكرة الجهم بن صفوان عند المعتزلة في استقلال العقل بإثبات الصفات أو نفيها، وتشبعوا بالرغبة في تعطيل النصوص وردها، محتجين بأن إثباتها يدل على التشبيه وأنواع المحال، وأن ظاهر النصوص باطل واعتقاده ضلال، رتبوا على هذا الأصل نفي أوصاف الكمال، فنفوا رؤية رب العزة والجلال، وردوا الأخبار، وأنكروا الآثار التي ثبتت في رؤية الله ﷻ يوم القيامة، وقالوا أيضا بنفي صفة الكلام عن الله ﷻ، وجعلوه عاجزا عن التكلم بالقرآن بحجة أنه لو كان متكلما في زعمهم لكان له فم ولسان، وأن إثبات صفة الكلام تشبيه لله ﷻ بالإنسان.

وقد استفحل أمر المعتزلة، وكثر عددهم، وانتشر في البلاد خبرهم، ومن المؤسف أن بعض خلفاء الدولة العباسية قربهم وجعلهم في أعلى المناصب القيادية، متعللين بأنهم كانوا يجادلون المخالفين مجادلة عقلية، وكانوا يقطعون الزنادقة والشيعة والجبرية في كثير من المناظرات الكلامية، وأن مشايخ الحديث تعجز عن ذلك.

وفي بداية القرن الثالث الهجري تصادق المأمون بن هارون، وهو من أبرز خلفاء الدولة العباسية، تصادق مع بعض دعاة المعتزلة، وذلك

قبل أن يكون خليفة المسلمين، فقرب إليه رجلا يقال له بشر بن غياث المرييسي، وهو منحدر من أصل يهودي.

وكان هذا الرجل قد نظر في صفات الله ﷻ بالفكر الجهمي، فغلب عليه، وقال به وانسلخ من دواعي التقوى والإيمان، وأعلن القول بخلق القرآن، ودعا إليه حتى كان عينَ الجهمية في عصره، وكان عالَمِهم المقتدى بأمره، فمقته كثير من أهل العلم وناظروه، وحكموا عليه بالفسق وكفروه.

قال الإمام الشافعي رحمه الله عن هذا الجهمي: ناظرت بشر بن غياث المريسي، فكان مما قال: القرعة قمار، وهي حرام. فذكرت له حديث عمران بن حصين رضي الله عنه في القرعة، فبهت. والشاهد أن أبسط أمور السنة لا يعرفها بشر المريسي [١].

واختلط الخليفة المأمون أيضا برجل يقال له أحمد بن أبي دؤاد

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٥١/٣٨٠، نشر دار الفكر. بيروت، وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/٢٠٠. وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٧/٦٠، نشر دار الكتب العلمية، بيروت. وحديث عمران رضي الله عنه رواه مسلم وفيه: (أَنَّ رَجُلا أَعْتَقَ سِتَّةَ مَمْلوكِينَ لهُ عِنْدَ مَوْتِهِ، لمْ يَكُنْ لهُ مَال غَيْرَهُمْ، فَدَعَا بِهِمْ رَسُول اللهِ ﷺ فَجَزَّأَهُمْ أَثلاثا، ثُمَّ أَقْرَعَ بَيْنَهُمْ، فَأَعْتَقَ اثْنَيْنِ وَأَرَقَّ أَرْبَعَةً، وَقَال لهُ قَوْلا شَدِيدًا). ومعلوم أن الوصية فيما دون الثلث، ولذلك أجرى النبي ﷺ القرعة بينهم، ومعنى: قال له قولا شديدا، أي أنكر ﷺ فعله وكرهه. الحديث رواه مسلم في كتاب الأيمان، باب من أعتق شركا له في عبد ٣/١٢٨٨ (١٦٦٨).

الإيادي، وكان من أشد المتعصبين للمذهب الاعتزالي، قربه المأمون واتخذه صاحبا، ومن شدة تعلق المأمون به عظمه الشعراء نفاقا منهم للخليفة حتى قال بعض الشعراء من بني العباس الذين تولوا المعتزلة:

رسول الله والخلفاء منا : ومنا أحمد بن أبي دؤاد [(١)].

وقد رد عليه بعض شعراء أهل السنة الذين أدركوا خطورة هذا الرجل وأمثاله فقال:

رسول الله والخلفاء منا : ونبرأ من دعي بني إياد

وما منا إياد إذا أقرت : بدعوة أحمد بن أبي دؤاد [(٢)].

ومن شدة الترابط بين أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي والخليفة المأمون أشار على الخليفة أن يكتب على سترة الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، بدلا من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ الشورى:١١. فأراد أن يحرف كلام الله ﷻ لينفي وصفه بالسمع البصر. تماما كما قال الجهم بن صفوان عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. قال: لو وجدت السبيل إلى أن

---

(١) هذا الشاعر هو مروان بن أبي حفصة، انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤٣/٤، دار الكتب العلمية، بيروت. ووفيات الأعيان لابن خلكان ٨٦/١، نشر دار الثقافة. والبداية والنهاية لابن كثير ٣١٩/١٠، نشر مكتبة المعارف بيروت.

(٢) هذا الشاعر هو أبو عفان رد بذلك لما سمع شعر مروان، انظر تاريخ بغداد ١٥٣/٤. والبداية والنهاية ٣٢١/١٠. وتاريخ الإسلام للذهبي ٤٤/١٧، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

أحكها من المصحف لفعلت [١].

وقد وصل الأمر ببعضهم إلى محاولته تحريف القرآن حتى لا يؤمن بتلك الصفة، فقال لأبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة: أريدك أن تقرأ هذه الآية: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ النساء:١٦٤. بنصب لفظ الجلالة، وذلك ليكون موسى عليه السلام هو المتكلم، أما الرب عنده فلا يتكلم؛ لأن الكلام لا يكون إلا بفم ولسان حسب زعمه فقال أبو عمرو: هب أني وافقتك في ذلك، فماذا تفعل بقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ الأعراف:١٤٣. فبهت المعتزلي؟ [٢].

ولما أصر أبناء الجهمية من المعتزلة على نفي صفة الكلام عن الله عز وجل تبادر إلى الذهن سؤال هام، وهو: إذا كان الله عز وجل لا يتكلم فهذا القرآن كلام من؟ ومن الذي تكلم به؟ قالوا تكلم به محمد ﷺ، ولما كان محمد ﷺ مخلوقا فكلامه إذا مخلوق، وقد خلق الله محمدا وخلق كلامه كما خلق سائر الأشياء.

أما هو سبحانه فلا يتكلم ولا يكلم أحدا من خلقه، ومرة ينسبونه إلى جبريل! ومرة ينسبونه إلى محمد ﷺ! ومرة يزعمون أن الله عز وجل

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٤٠.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص١٨٢. وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ١٢/٢. والصواعق المرسلة لابن القيم ١٠٣٧/٣.

كان ولم يكن عرب ولا كلام عربي، فالله ﷻ خلق القرآن كما خلق العرب! وغير ذلك من ألوان التخبط في الأدلة والتضارب في القول.

وقد عبر ابن القيم عن ذلك في نونيته، فقال عن تضاربهم، وتهافت قولهم، ومستهزئا بعقيدتهم [(١)] :

إن الذي جاء الرسول به : لمخلوق ولم يسمع من الديان
والخلف بينهم فقيل محمد : أنشاه تعبيرا عن القرآن
والآخرون أبوا وقالوا إنما : جبريل أنشاه عن المنان
وتكايست أخرى وقالت إنه : نقل من اللوح الرفيع الشان
فاللوح مبدؤه ورب اللوح قد : أنشاه خلقا فيه ذا حدثان
هذي مقالات لهم فانظر ترى : في كتبهم يا من له عينان
لكن أهل الحق قالوا إنما : جبريل بلغه عن الرحمن
ألقاه مسموعا له من ربه : للصادق المصدوق بالبرهان

ولما قرب الخليفة المأمون رجالا من هؤلاء المعتزلة راودوه على مذهبهم، وأقنعوه ببدعتهم، وأصبح ألعوبة في أيديهم، ثم نصحوه أن يأخذ على أيدي الناس، ويلزمهم أن يقولوا بقولهم توحيدا وإرضاء لربهم، وإصلاحا للدين على زعمهم. وقد وقع المأمون بن هارون في شباكهم، وفرض على الناس بدعة جديدة لم تكن في أسلافهم، وهي البدعة الكبرى، أو بدعة تعطيل الصفات والقول بخلق القرآن. تلك

(١) متن القصيدة النونية لابن القيم ص٣٩، نشر مكتبة ابن تيمية.

البدعة التي أحدثت انقساما شديدا في الأمة الإسلامية، فصار الناس وقتها على فريقين:

الفريق الأول: فريق يتابع الخليفة المأمون على رأي المعتزلة، وينفون صفة الكلام عن الله ﷻ، ويعتقدون أن القرآن مخلوق، ومن قال بغير ذلك فهو عندهم كافر مشبه، وضال مضل يستوجب القتل حدا، وهؤلاء هم أهل القوة والمكانة، أتباع الخليفة، فالمأمون استخدم قوة الدولة في تأييد هذا الرأي وإلزام الناس بتلك البدعة، وأصبحت آراء المعتزلة قضية على رأس القضايا في اهتمامات الخلافة.

والمسألة وقتها لم تعد كلاما فاسدا يطوف على ألسنة الناس بين متأفف منكر، ومستحسن مؤيد، بل أصبح الأمر خطرا داهما يهدد كافة المسلمين في كل مكان، ويواجه أضعف الناس قوة الدولة ورهبة الخلافة والسلطان.

الفريق الثاني: فريق مستضعف يمثلهم علماء أهل السنة وعامة الناس من الضعفاء وغيرهم، وهؤلاء يقولون بأن القرآن كلام الله ﷻ غير مخلوق، ويؤمنون بما ورد من صفات الله في الكتاب والسنة، من غير تمثيل ولا تكييف ومن غير تعطيل ولا تحريف، وهم بدافع إيمانهم لا يجرؤون على تحريف الكلم عن مواضعه بالتأويلات الممقوتة التي دعاهم إليها أهل البدعة.

غير أن المواجهة اشتدت بين الفريقين إلى أن امتُحن فيها الناس أشد

امتحان، فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث، ولا مؤذن ولا معلم إلا أخذ بالمحنة، وهرب كثير من الناس فرارا بدينهم، وملئت السجون بمن أنكر على أهل البدعة من المعتزلة وأتباع الخليفة، وقد وصل التحدي إلى أن أمر الخليفة المأمون بن هارون، أن يكتب على أبواب المساجد: لا اله إلا الله رب القرآن وخالقه، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد من الجلوس للفتيا في المساجد أو تبليغ العلم، لأنهم صرحوا بمخالفته، فاعتبر المأمون ذلك منهم معارضة لسياسة الدولة، وأرسل إليهم رسالته الشهيرة.

- **رسالة المأمون في خلق القرآن وما فيها من زور وبهتان.**

أوجب الخليفة على كل مسلم أن ينفي عن الله ﷻ صفة الكلام ويقر بخلق القرآن تحقيقا لسلامته وإلا سيواجه قوة الدولة بمفرده. وقد نصر الله سنته وأعز دينه بالإمام أحمد بن حنبل، هذا الحبر الجليل الذي وقف لله ﷻ وقفة يضرب بها المثل في الثبات على الحق والتمسك بالسنة حتى قيل: أبو بكر ليوم الردة، وعمر ليوم السقيفة وأحمد ليوم البدعة.

قال الميمون: قال لي على بن المديني بعدما امتحن أحمد بن حنبل يا ميمون: ما قام أحد في الإسلام أحد مثل ما قام أحمد بن حنبل، قال ميمون: فعجبت من هذا عجبا شديدا، وذهبت إلى أبي عبيد القاسم بن سلام، فحكيت له مقالة على بن المديني، فقال: صدق، إن أبا بكر وجد له يوم الردة أنصارا وأعوانا، وإن أحمد لم يكن له أنصار

ولا أعوان [١].

بدأت المحنة الحقيقية سنة ٢١٨هـ عندما أرسل المأمون كتابه الشهير الذي طلب فيه من الولاة أن يختبروا أهل العلم في القول بخلق القرآن، أرسل كتابه الشهير إلى إسحاق بن إبراهيم والي الخليفة على بغداد، يلزم الناس فيه بأن يقروا بخلق القرآن تأييدا لرأي المعتزلة فجاء فيه: (أما بعد، فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم، ومواريث النبوة التي أورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم والعمل بالحق في رعيتهم، والتشمير لطاعة الله فيهم) [٢].

من المعلوم أن الاجتهاد المحمود هو الاجتهاد المبذول لخدمة دين الله ﷻ بعد تقديم النصوص، فلا اجتهاد مع نص، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الأحزاب:٣٦.

لكن الاجتهاد الذي بذله المأمون ودعا إليه اجتهاد هدم به عقيدة السلف أهل السنة، وهو يظن أنه يحسن صنعا، فإذا وصل الأمر به إلى أن يعتقد أن آراء المعتزلة هي عين التوحيد، وأن القول بخلق القرآن هو الحق، وينفي صفة الكلام عن الله ﷻ، ويشبهه بالعاجز الناقص، ويرد

(١) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٧٨/٥. وتهذيب الكمال للمزي ٤٥٢/١. والبداية والنهاية لابن كثير ٣٣٦/١٠.

(٢) انظر تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ١٨٦/٥ دار الكتب العلمية.

ما جاء في الكتاب والسنة، ثم يدعو إلى ذلك ويسميه عملا بالحق في الرعية، فهذا شر البلية، فلو مات المأمون على عقيدة العجائز من العامة لكان خيرا له.

قال المأمون في رسالته الشهيرة: (والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته، والإقساط فيما ولاه الله من رعيته، برحمته ومنته، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم، والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله، وقصور أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكير والتذكر) [(١)].

إن أهل الجهالة والعمى هم الذين تركوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وارتضوا غيره من أحكام العقول الفاسدة بديلا، غير أن المأمون في رسالته بين السبب في وصفه لهم بالجهالة والضلالة فقال: (وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين، واتفقوا غير متعاجمين على أنه قديم أول، لم يخلقه الله ويحدثه

---

(١) السابق ٥/١٨٦.

ويخترعه، وقد قال الله ﷻ في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء، وللمؤمنين رحمة وهدى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ ﴾ الزخرف:٣، فكل ما جعله الله فقد خلقه. وقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ الأنعام:١ وقال ﷻ: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ طه:٩٩، فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها وتلا به متقدمها، وقال: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾ هود:١، وكل محكَم مفصَّل فله محكِم مفصِّل، والله محكم كتابه ومفصله، فهو خالقه ومبتدعه)[1].

- **حجة المأمون في القول بخلق القرآن والرد عليه.**

ذكرنا أن مذهب المأمون تبنى فيه أصول المعتزلة الذين ينفون أوصاف الله ﷻ تحت مسمى التوحيد ونفي التشبيه، وأنهم لما أصروا على نفي صفة الكلام لزمهم الإفصاح عمن تكلم بهذا القرآن؟ فأداهم فكر الشيطان الذي عبث بعقولهم إلى القول بأن الذي تكلم به محمد ﷺ، ومحمد مخلوق فكلامه مخلوق، فهذا القرآن مخلوق خلقه الله ﷻ كما خلق سائر الأشياء.

وهم لم يستندوا في اعتقادهم إلى قرآن أو سنة، وليس منهجهم هو الاعتماد عليهما أساسا، ولكنهم لما أصلوا أصولهم، وسلموا أنفسهم

---

(١) انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢/٣٨. وتاريخ الإسلام للذهبي ١٥/٢٠. وتاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ٥/١٨٧.

لما قررته عقولهم، وساقتهم إلى الضلال أهواؤهم، ووجدوا أن عامة الناس لن يصدقوا كلامهم لمخالفته صريح القرآن، ولن يعتقدوا في كلامهم إلا بدليل من قرآن أو سنة، نظروا في كتاب الله ﷻ ليجدوا دليلا يقوي آراءهم، وليخدعوا العامة من ورائهم بأنهم يعتمدون على الكتاب والسنة.

وهم في حقيقة أمرهم يضربون بكلام ربهم وسنة نبيهم عرض الحائط، فاستدلوا بالآيات التي كتبها المأمون في رسالته وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ الزخرف:٣. فقالوا كل ما جعله الله ﷻ فقد خلقه، وهذا كلام باطل يدل على جهلهم بكتاب الله ﷻ ولغة العرب؛ لأن جعل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ ليست بمعنى خلق، فلفظ جعل قد يضاف إلى الله ﷻ، وقد يضاف إلى المخلوق، فإذا أضيف إلى الله ﷻ فهو على معنيين:

المعنى الأول: هو المعنى الكوني، ويعني الخلق والتقدير، والتكوين والتدبير الذي يقع لا محالة، كقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ ﴾ النبأ:٦/٨، وكقوله ﷻ: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ الأنعام:١.

المعنى الثاني: هو المعنى الشرعي الديني الذي يتضمن منهج المكلفين، وشريعة المسلمين، ويبين طريق عبادتهم، وصلاح دنيتهم،

وهذا قد يقع وقد لا يقع، ومعنى جعل هنا التشريع ووضع التكليف الديني الذي يتضمن أحكام المكلفين وشريعة المسلمين، كقول الله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ۝٩٠﴾ النساء:٩٠، أي لم يجعل لكم حكما شرعيا في قتالهم. وكقوله تعالى أيضا: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ المائدة:٤٨. وكقوله ﷻ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ المائدة:١٠٣.

ومن هذا المعنى الشرعي ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ الزخرف:٣. أي أنزل كلامه وشريعته بلغة العرب. قد بين الله سبحانه السبب في ذلك فقال: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ﴾ فصلت:٤٤. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ الشورى:٥٢.

لكن الخليفة المأمون لم يدرك تلك القضية وأبعادها، فأداه ذلك العمى إلى أن يلبس الأمور، ويخلط معاني الجعل بعضها ببعض، فيجعل الجعل الكوني بالمعنى الشرعي، والجعل الشرعي بالمعني الكوني وأن كل ما جعله الله ﷻ فقد خلقه.

وكذلك جعل إذا تعدت إلى مفعول واحد كانت بمعنى خلق كما

في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ الأنعام:١. وإذا تعدت إلى مفعولين، لم تكن بمعنى خلق كقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾ البقرة:٢٢٤. وكذلك قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾ الزخرف:٣. فإنها تعدت إلى مفعولين.

قال الخليفة المأمون يصف علماء السلف الصالح: (ثم هم الذين جادلوا بالباطل، فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم، ومكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم ونحلتهم، ثم أظهروا مع ذلك، أنهم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك على الناس، وأغروا به الجهال) [(١)].

- **بطلان ادعاء تكفير علماء السلف للمعتزلة.**

زعم الخليفة المأمون في رسالته أن أهل السنة والجماعة يكفرون المعتزلة، وهذا زعم باطل، فهم لا يكفرون إلا من كذب منهم بآيات الكتاب صراحة، أو قامت عليه البينة في أن قوله تكذيب لكلام الله ﷻ وأصر على ما هو فيه، ولذلك لما حمل الإمام أحمد من دار الخلافة بعد أن جلدوه، وحضرت صلاة الظهر صلى معهم ولم يكفرهم فيما اعتقدوه، لأنه يعلم أنهم أهل جهالة بالله ﷻ وعمى عنه .

وانظر إلى تحامل الخليفة المأمون على أهل السنة، ووصفه لهم في

---

(١) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ١٨٧/٥.

رسالته بأبشع الأوصاف؛ لأنهم عارضوه وتمسكوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فحاول أن يفَصِّل لهم تهمة تبرر اعتقالهم وعقابهم، وهي زعمه أنهم يستترون بالدين من خلال إصرارهم على هذا الاعتقاد طلبا للسلطة والرياسة، فقال في رسالته: (حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب، والتخشع لغير الله، والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيء آرائهم، تزينا بذلك عندهم وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم) [(١)].

يشير المأمون بن هارون إلى قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ التوبة:١٦.

ومعنى الآية أن الله ﷻ ابتلى المؤمنين بالجهاد ليمحص أهل الحق، ويميز الذين ناصروا الله ورسوله ظاهرا وباطنا ممن نافقوا وناصروا الله ﷻ في الظاهر فقط، أما الباطن فقد اتخذوا من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة، يعني بطانة من الكافرين والمشركين، يوالونهم على الكفر ويفشون إليهم أسرارهم بعداوة المسلمين، فالمأمون يشبه المعتزلة

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٨٨/١٠. وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣٨/٢. وتاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ١٨٧/٥. والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي ٢١٩/٢. وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٠٩/١ نشر مطبعة السعادة، مصر.

ودعوتهم إلى ما يسمى بالتوحيد ونفي الصفات وما أحدثوه في الأمة من فتن ومنازعات، يشبههم بالمجاهدين الأولين من الصحابة ﷺ في المعارك والغزوات لإعلاء راية التوحيد والقضاء على الشركيات.

وفي المقابل يشبه علماء السلف الصالح بالمنافقين الذين يتخذون وليجة من دون المؤمنين، فينافقون الخليفة في الظاهر، ويدعون الناس في الباطن إلى خلاف ما يعتقدون، فأي عمى أصاب الخليفة حين انقلبت لدية الموازين وأصبح الباطل حقا والحق باطلا؟!

ثم قال المأمون بن هارون يصف علماء السلف بأن الله ﷻ أعماهم وأصم أبصارهم: (وقد أُخِذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق، ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد:٢٤))[١].

لقد وصف المأمون علماء السلف الصالح بأنهم لا يفهمون، ولا يسمعون، ولا يبصرون، ولا يعقلون، وأن المعتزلة هم أهل البصيرة الذين يفهمون ويعقلون، فمن الأولى بذلك الوصف؟ الأولى به أهل البدعة من المعتزلة ومن شايعهم، فهم اعتمدوا عقولهم وأهوائهم حجة وحيدة في وصف ربهم، وأوجبوا عليه أن يتصف بكذا وكذا مما استحسنوه، ولا يتصف بكذا وكذا مما قبحوه.

وقد نزه الله تعالى نفسه عن وصف العباد له، واستثنى الوصف

---

(١) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ١٨٧/٥.

الذي بلغه عن الله ﷻ المرسلون، فقال تعالى في مثل قول المأمون بن هارون: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢ ﴾ الصافات:١٨٠/١٨٢. فنزه نفسه عما وصفه به الظالمون، ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوا به رب العالمين، وأنهم لم يكونوا مشبهين ولا معطلين، وإنما كانوا موحدين مثبتين كل ما أثبته الله ﷻ لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ، ثم حمد نفسه سبحانه على تفرده بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد فقال تعالى: ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢ ﴾ فلولا أن الله ﷻ عرفنا بنفسه في كتابه وفي سنة رسوله ما عرفناه، ولو تركنا لعقولنا كما أراد الخليفة والمعتزلة لضل الناس في معرفة ربهم.

وقد ومضى خير القرون من الصحابة والتابعين على ما كان عليه رسول الله ﷺ، كلهم بنبيهم محمد ﷺ مقتدون، وعلى منهاجه سالكون، ولم يبتدعوا كما ابتدع المأمون بن هارون، بل هم أصحاب البصيرة، وهم خير القرون، يقرؤون القرآن ويتدبرون معناه، ويؤمنون به ويعملون بمقتضاه.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨ ﴾ يوسف:١٠٨.

ونبينا ﷺ أوتي فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، فبعث بعلوم الأولين والآخرين، ولم يدع إلى هذه البدع التي يسميها المأمون بن

هارون توحيدا وجهادا. ثم قال هذا الخليفة يصف علماء السنة بأن شر الأمة: (فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة، ورؤوس الضلالة، المنقوصين من التوحيد حظا، والمبخوسون من الإيمان نصيبا، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب، ولسان إبليس الناطق في أوليائه، والهائل على أعدائه من أهل دين الله) [١].

انظر مدى تمسك المأمون بمذهب المعتزلة؟ وكيف غرسوا فيه هذا الاعتقاد إلى درجة أنه يعتبر المخالفين له من السلف الصالح هم شر الأمة ورؤوس الضلالة؟! وأنهم لا إيمان لهم ولا توحيد، وإنما هم أولياء الشيطان الذين يتكلمون بلسان إبليس.

لقد أسهمت بطانة السوء من المعتزلة في إضلال الخليفة، وصاروا كالأفعى التي بثت سمها في قلبه، حتى ظن أن قولهم في نفي الصفات هو الحق الذي لا تشوبه شائبة، وأنه منتهى التوحيد الذي يضبط به نوعيات العاملين لديه في مؤسسات الدولة، ومن ثم أوجب على أولي الأمر اختيار البطانة الصالحة من أهل العلم حتى يتم صلاح الراعي والرعية بزعمه.

- **إحداث البدعة يفتح بابا لتوالي الابتداع.**

قال الخليفة المأمون بن هارون متهما علماء السنة في صدقهم وشهادتهم: (وهم أحق من يتهم في صدقه، وتطرح شهادته، ولا

---

(١) السابق ١٨٨/٥.

يوثق بقوله ولا عمله، فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد ـ وهو يقصد بالتوحيد الأصل الأول من أصول المعتزلة ـ ومن عمي عن رشده وحظه من الإيمان بالله وبتوحيده، كان عما سوى ذلك من عمله والقصد في شهادته أعمى وأضل سبيلا) (١).

ثم أمر الوالي بامتحان العلماء في تلك البدعة التي عرفت بالبدعة الكبرى، أو بدعة القول بخلق القرآن فقال: (فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخلوص توحيده ويقينه، فإذا أقروا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمرهم بأن يسألوا من يحضرهم عن علمهم في القرآن، وأن يتركوا إثبات شهادة من لم يقر بأنه مخلوق محدث، والامتناع من توقيعها عندهم) (٢).

إن إحداث البدعة في الدين يفتح بابا لتوالي مسلسل الابتداع وهدم النصوص، فأي دليل من كتاب الله ﷻ أو من سنة رسول الله ﷺ يدل على أن الشاهد عند أداء الشهادة أمام القاضي لا بد أن

(١) السابق ٥/١٨٨.

(٢) السابق ٥/١٨٨.

يمتحن في خلق القرآن، فإن أقر بأن الله ﷻ يتكلم ردت شهادته، وإن اعتقد اعتقاد الخليفة المأمون بأن الله ﷻ لا يتصف بالكلام قبلت شهادته؟ أليست تلك بدعة لا نظير لها بنيت على بدعة كبرى لا عهد للمسلمين بها، ولا يختلف اثنان على بدعيتها ؟

فمن هم أهل البدعة والجهالة والعمى؟ لقد صدق قول القائل السلفي في الخليفة المأمون:

يا أيها الناس لا قول ولا عمل : لمن يقول كلام الله مخلوق
ما قال ذاك أبو بكر ولا عمر : ولا النبي ولم يذكره صديق
ولم يقل ذاك إلا كل مبتدع : على الرسول وعند الله زنديق (١).

ولما ولَّى الخليفة المأمون بشر بن الوليد الكندي أمور القضاء بعد أن أقر بمذهب المعتزلة في خلق القرآن، كان بشر إذا جاءه الشاهد سأله عن كلام الله وخلق القرآن، هل الله ﷻ يتكلم أم لا؟ فإن قال بأنه يتكلم رد شهادته، وإن قال: لا يتكلم، وشبه الله ﷻ بالعاجز الأبكم قبل شهادته، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وقد جاء رجل ذات يوم ليشهد أما القاضي بشر بن الوليد، فسأله عن كلام الله هل هو مخلوق أم لا، فقال الشاهد: إن الله يتكلم كما يليق بجلاله، والقرآن غير مخلوق، واحتج على عقيدته بقوله ﷻ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء:١٦٤]، فرد بِشرٌ شهادته

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢٧٩/١٠.

واتهمه في دينه، فخرج الرجل يصيح عند قصر الخليفة، ويقول مخاطبا المأمون:

يا أَيُها الرجل المُوَحِّـــدُ رَبَّهُ : قاضِيكَ بشرُ بن الوليد حِمارُ
يَنْفِي شهادة من يَدِينُ بما بِهِ : نَطَقَ الكتابُ وجاءت الأخبارُ
ويعُــدُّ عَـدْلاً من يقول بأنه : شيخٌ تُحيطُ بِجِسْمِـهِ الأَقْطارُ [1].

(١) السابق ١٠/٢٦٢.